# تجربة الكتابة الشعرية لدى الشاعرة التونسية ابتسام الخميري♣

**(قراءة من منظور نظرية إيقاع الشعر العربي)**

القصائد التي يضمها ديوان "**خواطر مسافر**"[i] للشاعرة التونسية "**ابتسام الخميري**" تحتكم إلى مقولة أبي العتاهية: "**أنا أكبر من العروض**" فهي لا تحتكم إلى المقياس العروضي بل تتمرد عليه في أغلب القصائد، وترتكز على جملة من العناصر الإيقاعية التي تمنح للنص صفة الشعر، أو تجعل القارئ العادي يدرك أن هذا شعرا؛ لما في قصائدها من ثنائيات ضدية، وتواز، وتكرارا، وقافية، وروي. ومن أمثلة ذلك:

هي ذي الدنيا/ يا صاحبي/ تلهينا ... ترهقنا/ ثم ترديا عاشقين...

قد يرحل الصبر/ ولا أتكلم/ قد يئن الصمت / ولا أتألم (ص33، 34.)

وقولها في قصيدة " **نواح في مدن الصمت**":

هناك / طفل يشكل لعبته/ المفقودة/ يبحث عن براءته/ المقتولة/ ينبش عن دميته/ الموءودة... (ص64)

وإذا ما طبقنا المقاييس العروضية على متن الديوان "**خواطر مسافر**" فإن العديد من النصوص تجد نفسها خارج دائرة الشعر، بالرغم من شعريتها وجاذبيتها المتمثلة خصوصا في بعض الانزياحات، كقولها:

يا جراحي / اسكبيني/ خمرة / تخفي /الشجن... (ص86)

أما هذا البيت الصوتي الآتي فيتنمى إلى نفس القصيدة التي ينتمي لها البيت الصوتي السابق وهي من بحر الرمل، لكن الشاعرة لم تستطع التحكم لا في البحر، ولا في التركيب اللغوي تقول:

قيل للأمطار هبي / توسد القمر/ نواحي/ قبع الصبر قليلا.(ص 85-86)

ورغم ذاك فإن إيقاعات بعض قصائدها وخاصة ذات الأبيات الصوتية القصيرة تتناغم مع إيقاعات أدونيس في قصائده القصيرة كقولها:

شققت ذاكرتي/ بعثرت أزمتي/ فلم أجدك. (ص11)

وقولها:

و....أتوه/ بين نفسي وبيني/ أنزع الخوف/ والغد انبعاث (28)

ومن ثمة فالشاعرة متحررة من القيود العروضية ولا تريد أن يكون شعرها نمطيا ومحدود في دوائر خمس مغلقة، وباهتا لا ماء فيه، فهي تنحى في كثير من قصائدها عن هذه الأنظمة المغلقة والمقيدة "كي لا تقع في النظم الباهت، ويصبح شعرها كلاما معقودا بقواف"[1]. وبذلك تمنح لقصيدتها حرية إيقاعية ممدودة تخلصها من الإيقاعات المحفوظة في الذاكرة لأنها تصبو إلى تقديم صورة عصرية معبرة عن ثقافة العصر وفلسفته وتتناغم مع الحريات الفكرية السائدة في هذا العالم.

وهي لا تتنصل من الضوابط الإيقاعية إلا ما وقع كسرا كما هو في المثال السابق ذكره، أو ما كتبته عمدا في إطار ما يصطلح عليه بـــ "**النثيرة**" كقصيدة "**صلوات في هيكل الحياة** " حيث تقول فيها:

حين نخشى المصير/ نتوه في غياهب/ الزمن (ص5)

وهذه تراعى فيها ضوابط إيقاعية تشد القارئ والمتلقي معا إليها، فتعمد على:

1- التوزيع الطبوغرافي في تقسيم الأبيات الصوتية*

2- تقطيع الأصوات في الكلمة الواحدة حسب النطق اللازم لها والذي يتطلب بطأ في التهجي والنطق ليجسد صورة الصوت واللفظ معا في سمع وذهن المتلقي.

3- انتهاء الأبيات الصوتية بمقطع صوتي مغلق أو ممدد.

4- ترتكز على الترقيم المصاحب للنص لإحداث النغم.

هذه بعض من العناصر الإيقاعية الأساسية التي ترتكز عليها تجربة كتابة النثيرة عن "**ابتسام الخميري**" دون إغفال العناصر الأخرى والتي تنضوي تحت مفهوم "**التوازنات الصوتية**".

هذه التوازنات هي التي تدمغ نصوصها بدمغ القصيدة وتمنحها صفة الشعر. متى كان "**الشعر ما أطرب الأذن والفهم مع**" [2].

ومن الظواهر المثيرة في تجربة كتابتها الشعرية :

1- ارتكازها على التساؤل والتعجب معا في إثارة الإثارة وفي تشكيل الصور وتحديد زمنها وفضائها.

ترى أين دربي؟

وانعراجات المصير

تجذبني ثم ترديني

جثثا دون مقابر

2- أيقون الترقيم يلعب دورا كبيرا في تجربتها الفنية وفي بث إيقاعات فنية بنوعيها: الحزينة الأليمة، والمرحة المتأملة والمشدود بخيط الأمل ففي حالة الحزن يغيب الترقيم نهائيا وقد تتلاشى معه الدلالة وتصبح مموهة أو تائهة في حقول سرابية يلفها لفح السيركو فترداد عظمة الغربة والاغتراب في نفس الشاعرة وتعيش حيرة الضمآن في فيافي بلا حدود ويجف الحلق ويأفل الغناء، ويختنق الوريد وتغدو الأحبال الصوتية بلا ترديد ولا ترنيم، ويحيط الحزن أرجاء القصيدة، وتنشد الخلاص من الزمان، علها تنتشي بلحظة عشق أو تبحر في جوف الأحلام ولو وهما.

بغياب الترقيم يسيج البياض أرجاء الكتابة، ويتساوى الحلم والحزن ويغيب النغم ويستعصى المعنى ويصبح البحث عن الدلالة مشقة مضنية، ويدخل القارئ عالم الشاعرة فينغمس فيه بنهم المضني الذي أتعبه الدرب كما أتعبت تجربة الكتابة الشاعرة، ويبحث خلف هذا البياض وهذه التقطعات عن معان لم تصرح بها الشاعرة، بل عن عالم بكامله مسكوت عنه، ويعيش معاناة التجربة الفنية من خلال الدلالات المفتوحة على أفق يصعب القبض عليه وبذلك يغدو القارئ للشاعرة شريكا في مشاعرها وأحزانها قصرا عنه.

تفرض الشاعرة على القارئ أن يقرأ ولا يتغنى وإذا تغنى فلا ينغم ولا يمدد؛ للحزن الذي يلف فضاء القصيدة وفضائهاهي، تقول مثلا:

سيان عندي بيت أحلام تتورد /أو/ حزن يتكور/ سيان عندي إن بدا الفجر قريبا / أو نما زرع الحيارى / فسقم الحياة انتشاء/ وحزن الليالي ارتواء.../ خلف ربوعي الخوالي / يقبع دربي الجليل. (ص78)

وتقول: ألا يا زمان تعالْ / عسانا نغيرْ / بعض المصير.(ص83)

**وأخيرا** فإن تجربة "**ابتسام الخميري**" تعكس صورة الأنثى الصبورة التي تتحمل كل الآلام خلافا للرجل، وهذه طبيعة أودعها الله في الأنثى. وهل توجد آلام أكثر من آلام المخاض عند المرأة؟ فهاهي تتألم في صمت بلا أنين رغم وجع الإبداع:

ففي كل نجد أظم جروحي/ بدون أنين ودون عويل/ فلا لن أقول بأني تعبت/ ولا لن أقول بأني صبرت/ أيا قادما من بعيد/ أهذا زماني رماني/ وشوقي يكابر؟!

---

* نشر في فسيفساء التونسية مجلة أدبية نصف شهرية الخميس 30/نوفمبر/2006

[i] - ابتسام الخميري. ديوان خواطر مسافر. دار إديكوب للنشر. تونس

[1]- عن أحمد الودرني في الشعر التونسي الحديث ط 2004. منشورات اتحاد الكتاب التونسيين ص131

* - البيت الصوتي: هو ما انتهى بوقف أو علة عروضية أو قافية ويكون تاما معنى ووزنا. ينظر: مصطفى حركات كتاب العروض، القصيدة العربية بين النظرية والواقع. المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية الجزائر.ص98

[2]- أحمد الودرني. في الشعر التونسي الحديث ص144.

**© مخبر وحدة التكوين و البحث في نظريات القراءة و مناهجها.**
**جامعة محمد خيذر بسكرة، الجزائر.2009**

http://labreception.net